كأنما يصّعّد في السماء

وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ (١٢٥) الأنعام

الموضوع باختصار ....

صدر الكافر ضيق لا يتسع للإسلام، وهذا من الناحية النفسية المعنوية. ولكي نفهم ذلك، ضرب الله مثلاً حسياً مادياً، أن هذا مثل حال الذي يصعد بقدميه في المرتفعات (كالجبل مثلاً)، فيشعر بضيق صدره (ينقطع نفسه فلا يستطيع التنفس إلا بصعوبة) بسبب التعب والإرهاق والجهد الشاق الذي بذله في الصعود على قدميه.

كذلك نحن قد نقول للشخص العصبي السريع الغضب أنت ضيق الصدر. ولو شبهنا ذلك مادياً وجسمياً، لقلنا له صدرك (في ضيقه النفسي) مثل صدر الذي ركض مسافة طويلة دون توقف.

تفاسير القدماء

يبدو أن قدماء المفسرين فهموا معنى كلمة (السماء) بالآية، أنها حيث السُحُب والكواكب والطيور. فالذي يُفهم (بشكل تقريبي) من تفاسيرهم المتنوعة: كأن الكافر (عندما دعي إلى الإسلام)، ضاقت عليه جميع الجهات الأربع (=ضاقت عليه الأرض) فلم تبق أمامه إلا جهة واحدة (جهة السماء)[1]، فكأنه يتمنى أن يرتفع ويحلق

[1] معاني القرآن للفراء (ت ٢٠٧ هـ): كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ يقول: ضاق عَلَيْهِ المذهب فلم يَجِد إلا أَنْ يَصعد فِي السماء وليس يقدر/ غريب القرآن لابن قتيبة (المتوفى: ٢٧٦هـ): (الحرج) الذي ضاق فلم يجد منفذا إلا أن يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ وليس يقدر على ذلك/ معاني القرآن للنحاس (ت ٣٣٨ هـ) : الكافر من ضيق صدره كأنه يريد أن يصعد الى السماء وهو لا يقدر على ذلك كأنه يستدعي ذلك ومن قرأ (يصعد) فمعناه أنه من ضيق صدره كأنه في حال صعود قد كلفه/ الحجة في القراءات السبع-ابن خالويه (المتوفى: ٣٧٠هـ): وَالْمَعْنَى أَن الْكَافِر لَو قدر لضيق صَدره أَن يرتقي فِي السَّمَاء لفعل/ تفسير الماوردي (ت ٤٥٠ هـ): والثاني: كأنه لا يجد مسلكاً لضيق المسالك عليه إلا صعوداً في السماء يعجز عنه/ الفصل في الملل والأهواء والنحل - ابن حزم (المتوفى: ٤٥٦هـ) : وَإِن من أَرَادَ ضلاله وَلم يرد هداه ضيق صَدره وأحرجه حَتَّى يكون كمريد الصعُود إِلَى السَّمَاء/ تفسير ابن عطية (ت ٥٤٢ هـ): وقال ابن جبير: المعنى لا يجد مسلكا إلا صعدا من شدة التضايق/ زاد المسير - ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) : وقال الفراء: ضاق عليه المذهب، فلم يجد إلا أن يصعد في السماء، وليس يقدر على ذلك/ تفسير القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ): والمعنى فيهما أن الكافر من ضيق صدره كأنه يريد أن يصعد إلى السماء وهو لا يقدر على ذلك، فكأنه يستدعي ذلك/ تفسير النسفي (ت ٧١٠ هـ) : {كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السماء} كأنه كلف أن يصعد إلى

ويطير في الهواء. ومثله قيل أنه أراد الصعود في السماء (هرباً وتباعداً وتكبراً)[1]. وقيل أن عدم استطاعة الكافر أن يسلم (أو صعوبته وثقله عليه)، مثل عدم استطاعة الإنسان أن يبلغ السماء (أو صعوبة ذلك وثقله عليه)[2].

السماء إذا دعي إلى الإسلام من ضيق صدره عن إذا ضاقت عليه الأرض فطلب مصعداً في السماء/ تفسير الخازن (ت ٧٤١ هـ) : وقيل: ضاق عليه المذهب فلم يجد إلا أن يصعد إلى السماء وليس يقدر على ذلك/ الفواتح الإلهية - النخجواني (ت ٩٢٠ هـ): قد ضاقت الأرض عليه من إلمام لوازم الإمكان فيتمنى الصعود الى عالم الأسباب من غاية اضطراره وتشتت باله واختلال حاله فصار كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ ويطلب الصعود فِي السَّمَاءِ من غاية اضطراره واحتياجه وهذا مثل يضرب لمن ضاق عليه طرق معاشه كَذلِكَ اى كحال من اضطر الى الصعود نحو السماء/

[1] معاني القرآن وإعرابه للزجاج (ت ٣١١ هـ): كأنَّ قلبه يصعد في السماءِ نبُوًّا على الإسلام واستماع الحكمة/ تفسير الماوردي (ت ٤٥٠ هـ): والثالث: كأنه قلبه بالنبو عنه والنفور منه صاعداً إلى السماء. والرابع: كأن قلبه يصعد إلى السماء بمشقته عليه وصعوبته عنده/ تفسير السمعاني (ت ٤٨٩ هـ): {كَأَنَّمَا يصعد فِي السَّمَاء} نبوة من الْحِكْمَة، وفرارا من الْقُرْآن/ تفسير الرازي (ت ٦٠٦ هـ): التقدير أن قلبه ينبو عن الإسلام ويتباعد عن قبول الإيمان فشبه ذلك البعد ببعد من يصعد من الأرض إلى السماء/ تفسير القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ): المعنى كاد قلبه يصعد إلى السماء نبوا عن الإسلام/ تفسير البيضاوي (ت ٦٨٥ هـ): وقيل معناه كأنما يتصاعد إلى السماء نبواً عن الحق وتباعداً في الهرب منه/ تفسير النسفي (ت ٧١٠ هـ):أو كعازب الرأي طائر القلب في الهواء/ تفسير الخازن (ت ٧٤١ هـ): وقيل: يجوز أن يكون المعنى كأن قلب الكافر يصعد إلى السماء نبوا عن الإسلام وتكبرا/ تفسير النيسابوري (ت ٨٥٠ هـ): وقيل: المراد أن قلبه يتباعد عن الإسلام وقبوله تباعد ما بين الأرض والسماء/ تفسير الإيجي (ت ٩٠٥ هـ) : كأنما يتصاعد إلى السماء هربًا من الإيمان، وتباعدًا عنه/

[2] تفسير الطبري (ت ٣١٠ هـ): قال أبو جعفر: وهذا مثل من الله تعالى ذكره، ضربه لقلب هذا الكافر في شدة تضييقه إياه عن وصوله إليه، مثل امتناعه من الصُّعود إلى السماء وعجزه عنه، لأن ذلك ليس في وسعه/ معاني القرآن وإعرابه للزجاج (ت ٣١١ هـ): كأنه قد كلف أن يَصْعَد إلى السماءِ إِذَا دُعِيَ إلى الإسلام مِنْ ضِيق صَدْرِهِ عنه/ تفسير ابن أبي حاتم (ت ٣٢٧ هـ): مثله كمثل الذي لا يستطيع أن يصعد في السماء/[تفسير الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ): يصير الإيمان عليه في الشدة والثقل كأنه كلف الصعود إلى السماء/كالمتكلف للصعود إلى السماء لا يقدر عليه]/ تفسير السمرقندي (ت ٣٧٣ هـ): مثله كمثل الذي يتكلف الصعود إلى السماء وهو لا يستطيع، فكذلك قلب الكافر لا يستطيع قبول الإسلام/ [الحجة للقراء السبعة - أبو علي الفارسيّ (المتوفى: ٣٧٧هـ): والمعنى أنه في نفوره من الإسلام وثقله عليه بمنزلة من تكلّف ما لا يطيقه، كما أن صعود السماء لا يستطاع/ كأنّه يراد على ما لا يقدر عليه من مصعد في السماء، أو حمل على ما يشبهه من الامتناع]/ الإبانة الكبرى لابن بطة (المتوفى: ٣٨٧هـ): كأنما يصعد في السماء، يقول: فكما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء فكذلك لا يقدر على أن يدخل التوحيد والإيمان قلبه، حتى يدخله الله عز وجل في قلبه/ تفسير القرآن لابن أبي زمنين (ت ٣٩٩ هـ): كأنما يكلف أن يصعد إلى السماء، يقول يثقل عليه ما يدعى إليه من الإيمان/ الغريبين في القرآن والحديث - الهَرَوي (ت ٤٠١ هـ): {كأنما يصعد في السماء} أي كأنه مكلف بالدعاء إلى الإسلام الصعود إلى السماء/ تفسير الثعلبي (ت ٤٢٧ هـ): يعني يشق عليه الإيمان، ويمتنع ويعجز عنه كما يشق عليه صعود السماء/ الهداية الى بلوغ النهاية - مكي (ت ٤٣٧ هـ): هذا مثل ضربه الله لصدر الكافر في شدة ضيق صدره عن قبول الإسلام ونفوره عنه، فهو بمنزلة من تكلَّف ما لا يُطِيقُهُ، كما أن من تكلَّف صعود السماء تكلَّفَ ما لا يُطَاق/ تفسير الماوردي (ت ٤٥٠ هـ): كأنه كُلِّف الصعود إلى السماء في امتناعه عليه وبعده منه/ التفسير الوسيط للواحدي (ت ٤٦٨ هـ): والمعنى: أنه في نفوره عن الإسلام وثقله عليه بمنزلة من يكلف ما لا يطيقه، كما أن صعود السماء لا يستطاع/ تفسير البغوي (ت ٥١٦ هـ): يشق عليه الإيمان كما يشق عليه صعود السماء/ تفسير الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ): كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كأنما يزاول أمراً غير ممكن، لأن صعود السماء مثل فيما يمتنع ويبعد من الاستطاعة، وتضيق عنه المقدرة/ تفسير ابن عطية (ت ٥٤٢ هـ): كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ أي كأن هذا الضيق الصدر يحاول الصعود في السماء حتى حاول الإيمان أو فكر فيه ويجد صعوبته عليه كصعوبة الصعود في السماء / باهر البرهان - النيسابوري (المتوفى بعد ٥٥٣ هـ) : (كأنما يصعد في السماء)أي: من ضيق صدره ونفوره عن الإسلام كمن يراد على ما لا يقدر عليه/ تفسير الرازي (ت ٦٠٦ هـ) : والمعنى أنه في نفوره عن الإسلام وثقله عليه بمنزلة من تكلف الصعود إلى السماء فكما أن ذلك التكليف ثقيل على القلب فكذلك الإيمان ثقيل على قلب الكافر/ تفسير البيضاوي (ت ٦٨٥ هـ) : كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ شبه مبالغة في ضيق صدره بمن يزاول ما لا يقدر عليه، فإن صعود السماء مثل فيما يبعد عن الاستطاعة، ونبه به على أن الإيمان يمتنع منه كما يمتنع الصعود/ تفسير القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ): شبه الله الكافر في نفوره من الإيمان وثقله عليه بمنزلة من تكلف ما لا

وفي كل هذه التفاسير لم ير أصحابها أن (الصعود في السماء) سبّب الاختناق وضيق النَفَس[1]. كما يبدو أنهم رأوا أن (ضيق صدر الكافر) هو الذي سبّب[2] (رغبته في الصعود للفضاء)، فكأنهم قلبوا المعنى (المفروض أن التصعد في السماء هو الذي يسبب ضيق الصدر، وليس العكس). فقالوا الكافر بسبب ضيق صدره (عن الإيمان)، كأنه لم يعد يحتمل البقاء على الأرض (= الكافر من ضيق صدره كأنه يريد أن يصعد إلى السماء).

التفسير الأقرب

علينا أن نسأل أنفسنا، ما هدف القرآن من هذا التشبيه في العبارة [كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ]؟ الجواب البسيط هو: لكي نفهم العبارة قبلها [يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا]. وإذن لابد أن التشبيه أو المثال (التصعد في السماء)، فيه أيضاً المعنى الذي في الأصل (الصدر الضيق الحرج). فكأن الآية تقول: ضاق صدر فلان بسبب كذا (= الإسلام والإيمان)، كما يضيق صدره بسبب كذا (= التصعد في السماء). فالداعي لهذا التشبيه (التصعد في السماء)، هو أن الفكرة الأصلية وهي ضيق الصدر عن قبول الإسلام (لدى الكافر)، قد لا تتضح لبعض الناس. فجاء التشبيه (التصعد في السماء) ليوضّح الفكرة الأصلية: أن هذا الأمر (أي ضيق صدر الكافر عن قبول الإسلام)، مثل ضيق الصدر (بعض الأحيان) عن قبول الهواء (التنفس). أو لنقل: اختناق صدر الكافر عن الإسلام، مثل اختناق صدره عن الهواء.

يطيقه، كما أن صعود السماء لا يطاق/ [تفسير ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ): عن ابن عباس: {كأنما يصعد في السماء} يقول: فكما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء، فكذلك لا يستطيع أن يدخل التوحيد والإيمان قلبه، حتى يدخله الله في قلبه/ وقال عطاء الخراساني كأنما يصعد في السماء يقول مثله كمثل الذي لا يستطيع أن يصعد إلى السماء]/ تفسير الإيجي (ت ٩٠٥ هـ): مثله في امتناع قبول الإيمان مثل صعود السماء، فإنه ممتنع غير مستطاع/ معترك الأقران – السيوطي (ت ٩١١ هـ): ومعناه أن مَنْ يريد اللَه ضلاله كأنما يحاول الصعود في السماء، وذلك غَيْر ممكن، فكذلك يصعب عليه الإيمان/ الدر المنثور -السيوطي: {كَأَنَّمَا يصّعَّد فِي السَّمَاء} يَقُول: كَمَا لَا يَسْتَطِيع ابْن آدم أَن يبلغ السَّمَاء فَكَذَلِك لَا يقدر على أَن يدْخل التَّوْحِيد والإِيمان قلبه حَتَّى يدْخلهُ الله فِي قلبه/ البحر المديد – ابن عجيبة (ت ١٢٢٤ هـ): الإيمان تَمَنَّع عليه كما يمتنع عليه الصعود إلى السماء/

[1] الإعجاز العلمي إلى أين - د مساعد بن سليمان: وتقدير المعنى عندهم: إن عدم قدرة الكافر على الإيمان كعدم قدرة الإنسان على الصعود إلى السماء، ويكون الضيق والحرج عندهم بسبب عدم قدرته على الإيمان لا بسبب التصعد في السماء. وتفسيرهم لا يعيد التشبيه إلى الضيق والحرج، وإنما إلى الامتناع من الإيمان وعدم القدرة عليه.

[2] تفسير ابن أبي حاتم : عن السدي: قوله: كأنما يصعد في السماء قال: من ضيق صدره/ معاني القرآن للزجاج : كأنه قد كلف أن يَصْعَد إلى السماء إذَا دُعِيَ إلى الإسلام مِنْ ضِيق صَدْرِه عنه/ معاني القراءات للأزهري : وقيل معناهُ: أنه كأنه كُلِّف أنْ يصعد إلى السماء إذا دُعي إلى الإسلام من ضيق صدره عنه/ الفصل في الملل والأهواء والنحل : فيضلهم بِأَن يضيق صُدُورهمْ ويحرجها فكأنهم كلفوا الصعُود إِلَى السَّمَاء فيكفروا

معنى يصّعّد في السماء مثل يصعد الجبل على قدميه

صدر الكافر ضيق لا يتسع للإسلام، وهذا من الناحية النفسية المعنوية. ولكي نفهم ذلك[1]، ضرب الله مثلاً حسياً مادياً، أن هذا مثل حال الذي يصعد بقدميه في المرتفعات (كالجبل مثلاً)، فيشعر بضيق صدره (ينقطع نفسه فلا يستطيع التنفس إلا بصعوبة) بسبب التعب والإرهاق والجهد الشاق الذي بذله في الصعود على قدميه. وجاءت قراءة (يصّعّد)[2]، لتفيد أن الصعود (على الأقدام في الجبل مثلاً) يكون شاقاً صعباً مرهقاً وعلى مراحل وببطء ولا يكون بسهولة دفعة واحدة.

كذلك نحن قد نقول للشخص العصبي السريع الغضب أنت ضيق الصدر. ولو شبهنا ذلك مادياً وجسمياً، لقلنا له صدرك (في ضيقه النفسي) مثل صدر الذي ركض مسافة طويلة دون توقف.

فالفهم الأقرب أن الآية تشبّه وتمثّل (ضيق صدر الكافر عن الإيمان) معنوياً ونفسياً، كأنه مثل ضيق صدره (جسمياً ومادياً وحسياً) إذا تصعّد في السماء (الضيق النفسي لصدر الكافر، مثاله: الضيق المادي لصدره الذي سبّبه التصعد). فالآية نفهم منها أن تصعد الإنسان في السماء هو الذي سبب الضيق (في الصدر، أي في عملية التنفس). بينما أحد تفسير القدماء يقول العكس (أي أن ضيق الصدر وهو في الأرض، هو الذي تسبب في جعل صاحبه يتمنى أن يصعّد في السماء. وكأن الكافر عندهم اختنق على الأرض فتمنى أن يطير).

وأما المعاصرون فأدرك كثير منهم المعنى الصحيح (مع شطط بسيط سبّبه انبهارهم بالعلم الحديث). فقد ربط كثير منهم بين (ضيق صدر الكافر عن الإيمان) وبين (ضيق صدر الإنسان إذا طار عالياً في الجو)[3]. فقالوا أن

---

[1] لا ننسى أن القرآن جعله الله لكل الناس على اختلاف قدراتهم العقلية والعلمية، ولذلك فالقرآن يبسط الأمور غاية التبسيط لكي يفهمه الجميع.

[2] لعل القرآن استخدم فعل (يصعّد) بتشديد العين، ليدل على أن الصعود على الأقدام (كصعود جبل مثلاً) يكون على مراحل (لصعوبته) وليس دفعة واحدة. والسبب واضح، حيث صعود أي مرتفع تكون فيه مشقة وصعوبة وعناء وتعب وبطء وثقل حركة وتوقف كثير للراحة والتقاط النفس، فليس ذلك أمراً سهلا مثلما نصعد بارتياح وسرعة ثابتة في المصعد الكهربائي أو السالم الكهربائية.

[3] التفسير المنير للزحيلي : الكافر إذا طولب بالإيمان تضايق وكان حاله كحال الصاعد في السماء، كلما ارتفع وخف الضغط الجوي عليه، ضاق نفسه، وهذه نظرية علمية حديثة معروفة الآن فقط، وقد أشار إليها القرآن/ التفسير الوسيط للزحيلي: مثله كمثل من يصّعّد إلى السماء في طبقات الجو العليا، حيث يشعر بضيق شديد في التنفس، وكأنما يزاول أمرا غير ممكن لأن صعود السماء مثل فيما يمتنع ويبعد عن الاستطاعة، وتضيق عنه المقدرة/ بيان المعاني - عبد القادر العاني: «كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ» ... وهو أن أوكسجين الهواء ينقص فى طبقات الجو وكلما ارتفع تناقص وأن الإنسان إذا صعد لتلك الطبقة ولو بالطائرة أو غيرها من الآلات المحدثة ... يشعر فيها بعوارض الاختناق من صعوبة التنفس/ الجدول في إعراب القرآن - محمود صافي: كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ يرى علماء العصر الحديث أنه كلما ارتفع الإنسان عن سطح الأرض كلما خفّ الضغط الجوي وخفّ بالتالي نسبة الأكسجين التي يحتاج إليها الأحياء أثناء عملية التنفس، ونتيجة ذلك يشعر المرء بضيق في صدره/ دراسات في علوم القرآن - فهد الرومي : كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ}

[4] إشارة إلى ضيق صدر من يصعد إلى السماء وهو أمر لم يكتشفه العلم إلا حديثًا حيث يقل الأوكسجين وينخفض الضغط/ أسرار البيان في التعبير القرآني - فاضل السامرائيكَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السمآء} [الأنعام: ١٢٥] والسماء هنا بمعنى الجو. والمعنى أن الضالّ عن الحق يكون صدره ضيقاً حرجاً كأنما

المعنى المقصود بالآية مثل إذا حلّق الإنسان بطائرة أو صاروخ في طبقات الجو العليا (بعيداً فوق السحاب وأعلى من أعظم الجبال)، فإنه يعاني من ضيق التنفس (فسروه تفسيرا علميا حديثا وهو أن الأوكسجين يقل وينقص كلما ارتفعنا في طبقات الجو العليا). فهم على كل حال، علموا التشبيه (ضيق صدر الكافر عن الإيمان = ضيق صدر الإنسان عن التنفس فوق السحاب)[1].

وأستغربُ من عدم ذكر القدماء لأمر ظننته في الأصل بسيطاً واضحاً لديهم. فظننت أن معنى (يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ) هو أمر معهود معروف جليّ عند القدماء خاصة: وهو الصعود (على القدمين) إلى الأعلى (في السماء). وهذا الصعود في السماء (على الأقدام) يعرفه القدماء ويدركونه جيداً، مثل صعود أية مرتفعات: كصعود الجبال والعقبات والسلالم والدرج وطوابق المنزل العالي (أو الصعود على القدمين إلى سطح البيت) وصعود الحرس والجنود إلى الأبراج أو صعود مهاجمي القلاع العالية إليها بالسلالم والحبال أو تسلق النخل والأشجار العالية بالأرجل والأيدي (أو مع الاستعانة بالحبال) أو تسلق الجبال الطويلة لأغراض مختلفة. فكل هذه الأمور (التصعد في السماء) معروفة لكل الناس قديماً في سلمهم وحربهم.

كل هذه الأمور مارسها القدماء وجربوها أو رأوا غيرهم يفعلها أو لابد أن أحدهم قام بها ولو مرة في حياته، فوجد انقطاع نَفَسه (ضيق صدره) أو نَفَس من فعل ذلك، بسبب الجهد الذي بذله في الصعود.

فالقرآن ضرب مثلاً بسيطاً واقعياً معروفاً، حيث يشبه الأمر المعنوي النفسي (ضيق صدر الكافر عن قبول الإسلام) بأمر مادي حسي[2] وهو ضيق نَفَس الصاعد (على قدميه) في الأعالي. فكلمة السماء يبدو أن القرآن قصد بها كل مرتفع ترتفع عليه بقدميك (جبل، عقبة، درج، سلم، طوابق المنزل، سطح البيت، شجرة عالية، منارة،

يصّعَّد في الجو لأن المرتفعَ في الجو يضيقُ صدره لاختلال الضغط كما هو معلوم. وهذا إعجاز علمي علاوة على الإعجاز اللغوي، لأنه أخبر بهذه الحقيقة العملية قبل اختراع المنطادات والطائرات بِدُهور/ الواضح في علوم القرآن : كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ [الأنعام: ١٢٥]. الأوكسجين ضروري لتنفس الإنسان، ويقل في طبقات الجو العليا، فكلما ارتفع الإنسان في أجواء السماء أحس بضيق الصدر وصعوبة التنفس، والآية أشارت إلى هذا تماما/ دراسات في علوم القرآن - فهد الرومي: كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ} ٤ إشارة إلى ضيق صدر من يصعد إلى السماء وهو أمر لم يكتشفه العلم إلا حديثًا حيث يقل الأوكسجين وينخفض الضغط/ المعجزة القرآنية حقائق علمية قاطعة : والآية تشير إلى تناقص كمية الأوكسيجين كلما ارتفعنا في الغلاف الجوي للأعلى، حتى تنعدم فيضيق الصدر كلما ارتفعنا في السماء.

[1] الإعجاز العلمي إلى أين- د مساعد بن سليمان: وجعلوا التشبيه يعود إلى الضيق والحرج، والمعنى عندهم: إن حال ضيق صدر الكافر المعرض عن الحق وعن قَبول الإيمان كحال الذي يتصعد في السماء. وذكروا وجه الشبه، وهو الصفة المشتركة بينهما: ضيقاً وحرجاً، وجاء بأداة التشبيه (كأن) ليقع بعدها المشبه في صورة حسية واضحة

[2] أراد القرآن أن يوضح أمراً نفسياً معنوياً لا ندركه إلا بالتفكر والتخيل (حالة اتساع قلب إنسان للإسلام وحالة ضيق قلب إنسان آخر عنه)، من خلال أمر مادي حسي نشعر به ونحسه مادياً (حالة اتساع صدورنا للهواء ودخوله فيها براحة وهدوء وطمأنينة أو حالة ضيق صدورنا عن الهواء ودخوله إليها بصعوبة بالغة وكأننا على وشك أن نختنق).

مأذنة، صواري السفن، ...)، فهذا أمر معروف جداً. وإذا قام أي إنسان بمثل هذا الصعود (على الأقدام) سيشعر بانقطاع نفسه (ضيق صدره وكثرة تنفسه وزيادة خفقان قلبه). وطبعاً نعلم أن الأوكسجين متوفر جداً والضغط الجوي مناسب جدا، فنحن لم نرتفع أو نطير إلى طبقات الجو العليا، وإنما فقط علونا وصعدنا جبلاً أو في العادة نصعد طابقي منزل أو بضعة طوابق. فكلنا يدرك أن انقطاع النَفَس وضيق الصدر سببه التعب والجهد الذي بذلناه في الطلوع (وليس نقص الأوكسجين من حولنا).

وهذا يمكن أن نشبهه بالفرق بين نَفَس الماشي ونَفَس الراكض (الذي كلما زاد عدوه كلما زاد انقطاع نَفَسه). أو بالفرق بين نَفَس المستريح المطمئن (الذي لا يبذل أي جهد عضلي) ونَفَس العامل الناصب الشاقي الذي يحمل وينقل الأشياء الثقيلة دون أن يصعد (وهو على نفس المستوى الأرضي حيث يوجد المستريح). أو كالذي يمتح ويجذب الدلاء الثقيلة من أسفل البئر. أو الذي يسبح مسافة ليست قليلة في الماء. أو الذي يتصارع أو يقاوم أو يجاذب (لزمن غير قليل) .. الخ. فالسبب في كل هذه الحالات (سبب ضيق التنفس) هو التعب والجهد المبذول، وليس السبب قلة الأوكسجين حول الذي يتعب (كمية الأوكسجين واحدة للمستريح وللناصب العامل، لأنهما في نفس المكان). فالسبب في ضيق الصدر (انقطاع النَفَس) في كل الحالات السابقة هو الجهد والعمل الشاق وليس الارتفاع.

ولكن القرآن ذكر فقط أحد أسباب انقطاع النَفَس وهو الجهد المبذول والتعب الذي نشعر به عند صعود أي مرتفع (على الأقدام). ولم يرد القرآن تحديد ذلك المرتفع، لأن المرتفعات متنوعة ومتعددة، فعبر عن الصعود (في المرتفعات المختلفة) بكلمة شاملة وهي الصعود (في السماء).

ولا أستغرب من المعاصرين، إذ انبهروا بالعلم الحديث وأغراهم جداً[1]، فأرادوا جر القرآن لما اكتشفه العلم، بينما لا يريد القرآن ما أرادوا. ولكني أستغرب من القدماء الذين لم يذكروا هذا المعنى الواضح المعروف المشهور لديهم (صعود الناس المرتفعات المختلفة على أقدامهم وضيق الصدر وانقطاع النفس بسبب ذلك)، وكأن كلمة السماء في هذه الآية لم يفهموها إلا بمعنى حيث تكون الطيور أو حيث السحاب والكواكب. بينما في آيات أخرى فهم بعضهم السماء بمعنى ذكرته المعاجم كما سنرى.

[1] وهذا الانبهار الشديد بالعلم الحديث ربما أثر نفسياً في كثير من الشباب المسلم، فأصبحوا لا يتدبرون القرآن كما هو موجود بالقرآن، بل كأنهم يتمنون أن يجدوا في القرآن ما يجدونه في الكتب العلمية الحديثة كالفيزياء والكيمياء والأحياء وغيرها. وهذا الانبهار بالعلم الحديث تعدى إلى إيمان بعضهم بالخرافات كنظرية التطور لداروين، فأخذ كثير من المثقفين يفسرون آيات قرآنية على أساس خرافة التطور.

كلمة السماء قد تأتي بمعنى علو وارتفاع (يتواجد فيه الإنسان عادة أو يستطيع)

قال ابن عطية في تفسيره [قال أبو علي: ولم يرد السماء المظلة بعينها، وإنما هو كما قال سيبويه والقيدود: الطويل في غير سماء، يريد في غير ارتفاع صعدا][1].

وكذلك كلمة السماء في هذه الآية لا تعني حيث الكواكب [كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) إبراهيم]. فمن الواضح أن معنى (السماء) في الآية هو حيث (أعالي) النخلة أو الشجرة[2].

كما فسر بعض العلماء كلمة السماء بالآية [فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ (١٥) الحج]، أن معنى (السماء) هو حيث (سقف البيت)[3].

---

[1] الكتاب لسيبويه : والقيدود، لأنه الطويل في غير السماء

[2] تفسير يحيى بن سلام : {وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ} [إبراهيم: ٢٤] يَعْنِي بِذَلِكَ طُولَهَا/ تفسير الطبري : وفرعها في السماء} [إبراهيم: ٢٤] يقول عز ذكره: ... وفرعها وهو أعلاها في السماء/ تفسير السمرقندي : وَفَرْعُها فِي السَّماءِ يعني: رأسها في الهواء ... كما أن النخلة رأسها في السماء/ تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين : {وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ} أَيْ: رَأْسُهَا الَّذِي تَكُونُ فِيهِ الثَّمَرَةُ/ تفسير السمعاني : {وفرعها فِي السَّمَاء} أَي: أَعْلَاهَا فِي السَّمَاء/ تفسير الطبري : وفرعها في السماء) .. "وفرعها"، وهو أعلاها في "السماء"، يقول: مرتفع علوًّا نحوَ السماء/تفسير الماوردي: {وفرعها في السماء} أي نحو السماء/تفسير ابن عطية : وقوله عن الشجرة وَفَرْعُها فِي السَّماءِ أي في الهواء نحو السماء/تنوير المقباس من تفسير ابن عباس : وفرعها فِي السَّمَاء يَقُول أَغْصَان النَّخْلَة ترفع نَحْو السَّمَاء

[3] تفسير الطبري : [قال: من كان يظن أن لن ينصر الله محمدا، فليربط حبلا في سقف ثم ليختنق به حتى يموت/ والسبب: الحَبْل، والسماء: سقف البيت، فليعلق حبلا في سماء البيت ثم ليختنق/ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ) قال: سماء البيت./ عن ابن عباس...قال: السماء التي أمر الله أن يمد إليها بسبب سقف البيت أمر أن يمد إليه بحبل فيختنق به/ وقالوا: معنى الكلام: ... فليمدد بسبب إلى سماء البيت ثم ليختنق]/ معاني القرآن وإعرابه للزجاج : تفسير قوله: (فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ) . السبب الحبل، والسماء السقف، أي فليشدُدْ حَبْلاً في سَقْفِهِ.(ثُمَّ لْيَقْطَعْ) .أي ليمد الحبل حتى ينقطع فيموت مختنقاً./ التفسير الوسيط للواحدي : وهو تفسير قوله:{ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ } [الحج: ١٥] فليشدد حبلا في سقفه، ثم ليقطع أي: ليمد الحبل حتى ينقطع فيموت مختنقا

وأما معاجم اللغة فبينت معاني إضافية لكلمة سماء مثل: (أعلى البيت)[1]، (سقف البيت)[2]، (كل سقف)[3]، (كل عال مطل)[4]، (ظهر الفرس)[5]، (أعلى النعل)[6]، (رواق البيت)، (أعلى كل شيء)[7]. كما استعمل العلماء عبارة (في السماء)[8] لوصف ارتفاعات لا تتعدى الأمتار.

---

[1] جمهرة اللغة: سَماء الْبَيْت: أَعْلَاهُ.

[2] معجم ديوان الأدب: السَّماءُ: كلُّ ما عَلاك فَأَظَلَّكَ. ومنه قيل لِسَقْفِ البيت: سماءٌ/ الصحاح: والسماء: كلُّ ما علاك فأظلّك، ومنه قيل لسقف البيت: سَماءٌ.

[3] تهذيب اللغة: وَقَالَ الزجّاج: السماءُ فِي اللّغة: يُقَال لكلّ مَا ارتفَعَ وعَلا قد سَمَا يَسمُو، وكلُّ سَقْف فَهُوَ سَماء/ تفسير أبي السعود: والمرادُ بالسماء هذه المِظلة وهي في الأصل كل ما علاك من سقف ونحوه

[4] مجمل اللغة لابن فارس: والسماء: السقف، وكل عال مطل سماء حتى يقال لظهر الفرس سماء/

[5] اتفاق المباني وافتراق المعاني: وَالسَّمَاء أَعلَى متن الْفرس

[6] المحكم والمحيط الأعظم: وسَماءُ النَّعْلِ أعلاها الذي تقع عليها القَدَمُ وسَمَاءُ البَيْتِ رُوَاقُه وهي الشُّقّةُ التي دُون العُلْيَا

[7] لسان العرب: وسماءُ كلِّ شَيْءٍ: أَعلاهُ، مذكَّر. والسَّماءُ: سقفُ كلِّ شَيْءٍ وكلِّ بيتٍ. ... قِيلَ لسَقْفِ الْبَيْتِ سَمَاءٌ.

[8] تفسير مقاتل بن سليمان: وكان طول أحدهم ثمانية عشر ذراعا ويقال اثني عشر ذراعا في السماء مثل أعظم أسطوانة تكون/ تفسير الطبري : طول السفينة ...وطولها في السماء ثلاثون ذراعًا/ [نهاية الأرب في فنون الأدب: فأقبل موسى وطوله عشر أذرع وطول عصاه عشر أذرع، ونزا فى السماء عشر أذرع/فإذا كان طولها فى السماء مثل البيت]/ اللطائف في اللغة : فَإِن كَانَ طولهَا فِي السَّمَاء مثل الْبَيْت فهى التل/ فقه اللغة وسر العربية : فإذا كَانَ طُولُهَا فِي السَّماءِ مِثْلَ البَيْتِ/ [لسان العرب : الرَّهْوَةُ الرَّابِية تضْرِبُ إِلى اللّين وطولُها فِي السَّمَاءِ ذِرَاعَانِ أَو ثَلَاثَةٌ/ الأَمَرةُ مِثْلُ الْمَنَارَةِ، فَوْقَ الْجَبَلِ، عَرِيضٌ مِثْلُ الْبَيْتِ وأَعظم، وَطُولُهُ فِي السَّمَاءِ أَربعون قَامَةً]/ وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى : لعدم ارتفاع أبنيتها في السماء./ معجم البلدان : الكومة تراب مجتمع طوله في السماء ذراعان/ الاشارات الى معرفة الزيارات : سميت كعبة لأن إبراهيم عليه السلام لما بناها جعل طولها فى السماء تسع أذرع/ الكامل في ضعفاء الرجال : شجرة الصنوبر شجرة بالشام طول الشجرة عشرون ومئة ذراع في السماء/ تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف : وذرع حنك زَمْزَم فِي السَّمَاء ذراعان وشبر/[شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام : ارتفاع فم زمزم ... ارتفاع فمها في السماء: ذراعين إلا ربعا/ وذرعت مسجد قباء ...وارتفاعه في السماء عشرون ذراعا/ وارتفاع بابه ... في السماء: أربعة أذرع وربع/ أن الخليل عليه السلام لما بنى البيت جعل طوله في السماء تسعة أذرع]

وذكر بعض العلماء هذا المعنى الواضح البسيط الذي تقصده الآية. فلعل من القدماء: ابن عطية[1] وتبعه الثعالبي. ومن المعاصرين: حسن خان[2] والبيلي البدوي [3] ودروزة عزت[4] وابن عثيمين[5] ومصطفى العدوي[6] وغيرهم.

الخلاصة

معنى الآية ببساطة، أن الإنسان (الذي يختار الكفر ويصر عليه)[7]، يجعل الله صدره (بالمعنى المعنوي النفسي) ضيقاً حرجاً (لا يتسع للإسلام)، مثلما يضيق صدره (بالمعنى المادي الحسي) حين يصعد المرتفعات الشاقة على قدميه. فالآية ببساطة توضح لنا كيف يضيق صدر الكافر نفسياً ومعنوياً عن الإسلام، من خلال ما نشعر به حسياً وجسدياً عندما تضيق صدورنا أثناء صعود المرتفعات المتعبة على أقدامنا.

حامد العولقي

---

[1] تفسير ابن عطية (المتوفى: ٥٤٢هـ): وتحتمل الآية أن يكون التشبيه بالصاعد في عقبة كؤود كأنه يصعد بها الهواء/ تفسير الثعالبي (ت ٨٧٥ هـ): وتحتمل الآية أن يكون التشبيه بالصاعد في عقبة كئود كأنه يصعد بها في الهواء

[2] فتح البيان في مقاصد القرآن – صديق حسن خان (المتوفى: ١٣٠٧هـ): (كأنما يصعد في السماء) ... ومعناه يتكلف ما لا يطيق مرة بعد مرة كما يتكلف من يريد الصعود إلى السماء المظلة أو إلى مكان مرتفع وعر كالعقبة/ تفسير حدائق الروح والريحان ٠ محمد الأمين الهرري: {كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ}، لأنه شبه حال من جعل الله صدره ضيقا حرجا عن الإيمان بحال من يكلف نفسه بالصعود إلى السماء المظلمة، أو إلى مكان مرتفع وعر كالعقبة.

[3] من بلاغة القرآن - أحمد أحمد البيلي البدوي (المتوفى: ١٣٨٤هـ): أما ما يشعرون به عند ما يسمعون دعوة الحق فضيق يملأ صدورهم، ويئودهم حمله، كهذا الضيق الذى يشعر به المصعد في جبل، فهو يجر نفسه ويلهث من التعب والعناء، وهكذا صور الله ضيق صدورهم بقوله: ...كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ

[4] التفسير الحديث - دروزة محمد عزت (ت ١٤٠٤هـ) : كأنما يصعد في السماء: يتصعد، ومعنى الجملة كأنما يتكلف مشقة ارتقاء مرتفع عال حيث يضيق صدره ونفسه بذلك .. أما الآخرون فيكونون كمن يتكلف ارتقاء مرتفع عال حيث تضيق صدورهم وتلاحق أنفاسهم.

[5] مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (ت ١٤٢١هـ): {كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ} ، يعني: كأنه حين يعرض عليه الإسلام يتكلف الصعود إلى السماء... وهذا الذي يتكلف الصعود لا شك أنه يتعب ويسأم. ولنفرض أن هذا رجل طلب منه أن يصعد جبلا رفيعًا صعبًا، فإذا قام يصعد هذا الجبل، سوف يتكلف، وسوف يضيق نفسه ويرتفع وينتهب، لأنه يجد من هذا ضيقًا.

[6] سلسلة التفسير لمصطفى العدوي: وهذا ملاحظ كما قال تعالى: {وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ} [الأنعام:١٢٥]، وأنت إذا صعدت إلى الطابق الخامس أو الطابق السادس تكون متعباً ومرهقاً، وكلما ارتفعت في الطوابق ازددت إرهاقاً، وأنت مستعد أن تمشي خمسة كيلو مترات ولا تصعد إلى الطابق العشرين مثلاً، فالصعود في نفسه نوع من أنواع التعذيب.

[7] الله لا يرغم الإنسان على الكفر (كما قد يفهم بعض غير المسلمين)، ولكن الإنسان هو الذي يختار أن يكفر (يرفض الإسلام)، فيحقق الله له اختياره. فالله لا يجبر أحداً على إيمان أو كفر وإنما يعطيك ما اخترت {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ } [الكهف: ٢٩]